

أثر السياق القرآني على دلالات الألفاظ

الدكتور/ حيدر محمد سليمان

الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن - كلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية

(المقدمة)

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على النبي الأُمِّي سيد الفصحاء وأبلغ البلغاء، وعلى آله وصحبه أوعية العلم وعلى التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين. وبعد ...

فإن القرآن الكريم يتحقق إعجازه بأقل سوره، وأقصر آياته، وعنصر إعجازه يتمثل في دلالة كلماته ومقاصدها، وآياته، وفق مقاييس اللغة وتوجيه السياق القرآني في إفادة المعنى ودلالته، وبما يفتح الله تعالى على أصحاب التفسير من فهم في معانيه.

وليس من معجزات الأنبياء والرسل الذين سبقوا ما جاء على هذه الصفة، إذ كانت كلها معجزات حسية، يخرج إعجازها في صورة ملبوسة من صور الأحداث الكونية التي لا تقع في قدرة البشر^(١)، وينتهي مفعولها بعد حدوثها ومشاهدتها.

ولهذا فإن باب البحث لن يقلل والدراسة في هذا القرآن لن تنتهي، وما هذا إلا صورة من صور الإعجاز القرآني، وليس بين أيدينا أبلغ من أن نورد قول المصطفى ﷺ في وصفه للقرآن الكريم حيث وردَ عن ابن أبي الحارث الأعور عن الحارث عن علي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كُتِبَ اللهُ فِيهِ خَيْرُ ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يخلقُ عن كثرةٍ ردٍّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى

(١) انظر: إعجاز القرآن دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، عبد الكريم الخطيب، القاهرة، دار الفكر العربي، المجلد الثاني ص: ٣.

الهدى في غيره أضله الله، هو حبلُ الله المتين وهو الذكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، هو الذي مَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْرُوسَ (١).

والقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة، التي تختلف عن معجزات الأنبياء الآخرين، فهو المعجزة اللغوية الوحيدة بين تلك المعجزات التي أكرم بها الأنبياء ﷺ، ولأجل هذا كان للقرآن الكريم المكان الأرفع لدى علماء اللغة وأرباب البيان منذ نزوله على صدر النبي ﷺ، حتى اعتبر الباحثون قديماً وحديثاً أن أهم حدث في تاريخ اللغة العربية على الإطلاق، هو نزول القرآن الكريم، وظهور الإسلام (٢)، وبدا أثر هذا الحدث واضحاً في لغة الحديث النبوي الشريف بعد ذلك، الشيء الذي نستطيع أن نتبين بعده إذا علمنا أن القرآن الكريم كان يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل، ثم يأتي الحديث النبوي الشريف فيفصل ذلك في بيان محكم ولغة سليمة مبهرة فاصلة في خطابها مينة في معناها (٣)، يقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤].

فالقرآن الكريم مثلاً لم يذكر التكاليف العملية والتفصيلية والأحكام المترتبة على دلالة بعض الألفاظ الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم مثل الصلاة (٤) والزكاة والحج ... إلى غير ذلك - وهي أهم أركان الإسلام - بل اكتفى بنحو قوله عز من قائل: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ١١٠]. ثم جاء الحديث النبوي الشريف ليفصل أوقات الصلاة بالكيفية المعروفة، كما فصل القواعد التي يجب اتباعها في جمع الزكاة (٥) وأسلوب صرفها

(١) رواه الترمذي في سننه، ١٤٩/٢ المطبعة الأميرية (جمهورية مصر العربية). وانظر: سنن الدارمي، باب فضل من قرأ القرآن، ٥٢٧/٢، رقم الحديث (٣٣٣٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

(٢) انظر: الباقلائي، أبو بكر بن الطيب (ت ٤٠٣هـ).

(٣) إعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م، ص ١٩ - ٣٥. وانظر: ف. ك. يوهان، العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة، ١٩٥١م، ص ١ وما بعدها.

(٤) الصلاة في اللغة تعني مطلق الدعاء، وفي معناها الإسلامي الشرعي هي عبادة خاصة تؤدي بالكيفية التي بينها النبي ﷺ.

(٥) انظر: ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ١٠٦هـ). النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق ظاهر الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ط الحلبي، القاهرة، ١٩٦٣ - ١٩٦٥م، المقدمة ٤/١ وما بعدها.

بالأنصبة المتبعة المعروفة الآن.

والصلاة والزكاة نموذجان لما تناولته السنة النبوية بالبيان والشرح حتى أنه ليصح لنا أن نقول: إن السنة تبين أحكام القرآن الكريم بياناً لغوياً، كما أنها توضح المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والسلوك الفقهي المترتب على هذه المفاهيم الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم.

دراسة اللغة العربية نغاية ووسيلة

ومن المتعارف عليه أن دراسة اللغة العربية غاية ووسيلة.

أولاً: هي غاية

فهي غاية متمثلة في أن هذه اللغة هي التي نزل بها كلام الله ﷻ، وشرفها بذلك حيث جعل مجرد تلاوته بهذه اللغة عبادة يؤجر عليها.

ثانياً: هي وسيلة

وهي أيضاً وسيلة لفهم ما وراء هذه الكلمات واستعمالها كما وردت في آي القرآن المجيد، والحديث الشريف، وكلام الأئمة من علماء الأمة من بعد، إذ بهذا الفهم المتكامل لقول الله ﷻ مع فهم السنة المطهرة وما ذكره علماء الأمة من شروح لهما، يعد هذا العمل هو الإرث العام لأدبيات الإسلام الذي يجب على المسلم أن يترسمه ويتبع منهجه في فهم دينه.

المبحث الأول: مفهوم السياق والدلالة في تفسير القرآن الكريم

أولاً: مفهوم السياق

إن غنى اللغة العربية وثرأها اللفظي وما تقله ألفاظها من معانٍ ومضامين، وما توفر له العلماء من البحث في توجيه دلالة الألفاظ والمعنى لتتعلق الكلمة بمؤداها إلى أهدافها نابع من خطورة الكلمة ومسؤولية الفرد تجاه نفسه وتجاه الآخرين من إطلاقه الكلمة من غير مسؤولية أو مراعاة لأثرها، ولأن الإنسان محاسب

على كل كبيرة وصغيرة، يقول تعالى: {مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ} [ق: ١٨]، وبهذا فكل من يلفظ بكلمة لا بد أن يعي أبعادها ويدرك مضامينها.

ومن هنا يجب علينا أن نحدد المفاهيم والمصطلحات ونقف على معانيها. ولقد واجه مصطلح السياق النسيان في شرحه من حيث اللغة ومفهومه، وإن كان حاضراً في كل كتب التفسير بذات دلالة المتعارف عليها الآن، لأن التفسير دون الصورة التطبيقية العملية المباشرة دون الوقوف على تعريف مصطلحاته بالطريقة النظرية الافتراضية للمصطلح العلمي.

السياق في اللغة

جاء في لسان العرب لابن منظور عن مادة «سوق» الآتي: ”ساق الإبل يسوقها سوقاً وسباقاً وهو سائق وسواق... وسواق أي: حادٍ يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائه، ومنه: رويدك سوقك بالقوارير(١). والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً، وساق إليها الصداق والمهر سباقاً وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب كان يدفع من الإبل. والسياق: المهر لأن العرب إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً. والسياق: نزع الروح، لأنها تساق من البدن. والسوق سميت بذلك لأن البضائع تجلب إليها، وتساق المبيعات نحوها. ويقال ولدت فلانة على ساق واحدة، أي بعضهم إثر بعض ليس بينهم جارية، وولد لفلان ثلاثة أولاد ساق على ساق، أي: واحد في إثر واحد“ (٢).

وذكر صاحب أساس البلاغة: وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك ساق الحديث، وهذا الكلام

(١) انظر: صحيح البخاري، الرياض المملكة العربية السعودية بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، كتاب الأدب باب (٩٠) رقم (٦١٤٩). والحديث نصه كالاتي: عن أنس بن مالك ؓ قال: ((أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم، فقال: ويحك يا أنجشة! رويدك سوقك بالقوارير)). انظر: صحيح مسلم، الرياض، المملكة العربية السعودية، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، كتاب الفضائل رقم الحديث: (٢٣٢٣).

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، ١٠/١٦٦-١٦٩ (بتصرف).

مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: أي على سرده (١).

ومن هنا نخلص إلى إن معنى السياق في اللغة يدل على: انتظام متوالٍ في الحركة لبلوغ غاية محددة. وقد تنبه ابن فارس لما يحمله هذا الأصل من معنى بقوله: السين والواو والقاف أصل واحد؛ وهو حدو الشيء، والساق (جمع سوق) للإنسان وغيره سميت بذلك لأن الإنسان ينساق عليها (٢).

السياق في الاصطلاح

تم تعريف السياق بأنه: تتابع الكلام وتساقفه، وكذلك يمكن تعريف دلالة السياق بأنها: فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده، ويمكن تعريف دلالة السياق في التفسير بأنها: بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له (٣).

مع تكرار الكلمات وترادفها في التعريف السابق إلا أنه يقرب من المقصود، وأرى أنه التعريف الذي يقرب من حقيقة المعنى ومفهوم اللفظ في توضيح معنى السياق، فقد تبين لنا من خلال المعنى اللغوي؛ أن السياق يدل على تتابع السير وانتظامه لبلوغ غاية محددة، و لما كان المفهوم الاصطلاحي مرتبطاً بالمعنى اللغوي، كان تحديد هذا الرابط بينهما أمراً مهماً، لذا كان لا بد أن ينطلق المعنى الاصطلاحي من الأصل اللغوي للمح الأصالة العلمية الفكرية للمصطلح التفسيري، والذي يظهر أن تعريف السياق القرآني هو:

«تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال».

ونستطيع أن نستأنس لهذا التعريف بكلمتين للإمام الطبري رحمه الله في تفسيره سبقت الإشارة إليهما حيث

(١) انظر: الزنجشيري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، بيروت لبنان، دار المعرفة، (د.ط)، (د.ت)، ص: ٢٢٥.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، بيروت الجمهورية اللبنانية، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ص: ٤٩٨.

(٣) عبد الحكيم بن عبد الله القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

قال: "إنما اخترنا ما اخترنا من التأويل، طلب اتساق الكلام على نظام من المعنى" (١)، وقال: "وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال التي ذكرناها لأنه أحسن معنى، وأحسنها استقامة على كلام العرب، وأشدّها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه" (٢).

فهناك ارتباط معنوي بين آحاد النص القرآني، سواء أكان سورة، أم مقطعاً من السورة، أم آية في مقطع، وهذا الارتباط قد لا يبدو للناظر في الوهلة الأولى، فيظن أن المعاني متفككة الأواصر لا ارتباط بين آحادها، وفي حقيقة الأمر هي متناسقة على أشد ما يكون عليه الاتساق والارتباط، فقد تذكر قصة ثم يتلوها ذكر مواعظ، ثم أوامر ونواهٍ، ثم وعد ووعد، وهي تدور في فلك موضوع واحد مترابط متناسق، والذي يكشف هذا الأمر ويعين عليه دراسة المعاني باعتبار اتصالها وارتباطها بما قبلها وما بعدها، لا بدراسة مجزأة مفككة كل معنى قائم بذاته، فهذه سياسة غير حميدة، يُجِل عنها الباحث في كتاب الله ﷻ.

الفرق بين السياق والنظم

إن المفسرين إذا أطلقوا مصطلح النظم قاصدين به السياق، فلا يعني هذا أنهم لا يفرقون في ذلك بين السياق والنظم، بل إنهم يميزون بينهما أشد التمييز، والذي يدفعهم لإطلاق مصطلح النظم والمقصود به السياق التجوز في العبارة لا غير، فهذا شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله يعطف السياق على النظم مغايرةً بين معنيهما فيقول: "وأشدّها اتساقاً على نظم الكلام وسياقه" (٣).

وهذا شيخ الإسلام أبو السعود العمادي يقول في تفسيره عن مصطلحي النظم والسياق: "ويأباه سياق النظم الكريم وسياقه" (٤)، وهذا يدل على أن النظم شيء والسياق شيء آخر.

(١) الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت لبنان، دار الفكر، (د.ط)، ١٩٨٤م، ج ١ ص ٤٧٩.

(٢) الطبري: جامع البيان ج ٣ ص ٣١٦.

(٣) الطبري: جامع البيان، ج ٣ ص ١٣٦.

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، القاهرة، مصر، دار العصور للطباعة والنشر، الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملاوية، ١٣٤٧هـ-١٩٢٨م، ٢٧٣/٤٠.

ويقول الإمام الألوسي: "وسياق النظم الكريم وسباقه ظاهر"^(١)، وهو يفرق بين السياق والنظم. وفي هذا السياق يقول الإمام الخطابي^(٢) أثناء حديثه عن أركان الكلام في رسالته «بيان إعجاز القرآن»: "لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم"^(٣). فالذي يربط المعنى باللفظ، فقد صرح الخطابي بأن القرآن صار مجزأً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم مضمناً أصح المعاني^(٤). فالنظم عنده (أي الخطابي) هو الذي يكشف عن حسن ارتباط المعاني بألفاظها، وهو ما يوضح الوجه البيانية، كاختلاف معاني الألفاظ المترادفة، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتكثير، فالنظم يراد به هذه الوجه من الاختلافات.

أما السياق، فيبحث في الدلالات المعنوية الآتية في مساق واحد، ومدى انسجامها في ما بينها، فالسياق يبحث أيضاً في ترابط المعاني بالمعاني السابقة واللاحقة، والنظم يبحث في ترابط المعاني بألفاظها، وبهذا يظهر الفرق بين المصطلحين.

وبعبارة دقيقة: فالسياق هو علاقة المعنى بالمعنى، والنظم هو علاقة اللفظ بالمعنى. والسياق بهذا المفهوم خادم للنظم، إذ إن النظم قد اختص بإيضاح الوجه البيانية ومدى تناسب المعاني مع ألفاظها، إذ لا يبين وجه المعنى حتى يتم استجلاء السياق من حيث دلالة المعنوية بسباقه ولحاقه، ومن ثم يتضح الوجه المبحوث عنه من ناحية النظم، لأن ذلك أدعى لتلبس الحقيقة.

(١) الألوسي، محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ج ١١، ص ٣٧٣.

(٢) الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان فقيه محدث أديب، له بيان إعجاز القرآن، معالم السنن، شأن الدعاء، توفي سنة ٣٨٨هـ. ينظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت - لبنان، دار صادر، (د.ط.)، (د.ت.)، ج ٢، ص ٢١٤، والزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٣) الخطابي، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، الإسكندرية جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة، ص ٢٧.

(٤) الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص ٢٧.

الفرق بين السياق والمناسبة

وظيفة المناسبات الكشف عن وجوه الربط بين الآيات والمقاطع التي لا يظهر - لأول وهلة - وجه ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ولا يتم الربط إلا بعد معرفة المعاني التي احتوتها الآيات السابقة واللاحقة، وهذه وظيفة السياق، وذلك من خلال الكشف عن معانيه المتتابعة، فالذي يشخص المعاني ويشكلها ويحدد بداياتها ونهاياتها هو السياق، فالسياق خادم لعلم المناسبات، ولا يتم استجلاء المناسبات إلا بعد معرفة سياق المقاطع القرآنية، وحينئذ يتحدد الموضوع، وعليه يكون إبراز المناسبة أمراً في غاية الوضوح والبيان.

تعريف علم الدلالة

هو علم يختص بدراسة المعنى، أو هو العلم الذي يعنى بالمعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو هو ذلك العلم الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى (١).

أسماء علم الدلالة

أطلقت على علم الدلالة عدة أسماء في اللغة العربية؛ فبعضهم يسميه علم الدلالة (يفتح الدال وكسرهما)، وبعضهم يسميه علم المعنى. ويقول صاحب كتاب علم الدلالة: "ولكن حذارٍ من استخدام صيغة الجمع والقول علم المعاني، لأن علم المعاني فرع من فروع البلاغة". وبعضهم يطلق عليه اسم «السيمانتيك» أخذاً من الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية (٢).

موضوع علم الدلالة

لما كان من تعريفات علم الدلالة: أي شيء أو كل شيء يقوم بدور العلامة أو الرمز، فيمكن أن

(١) علم الدلالة: أحمد مختار عمر، القاهرة، جمهورية مصر العربية (عالم الكتب)، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦م، ص ٦.

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٦.

تكون هذه العلامات أو الرموز علامات على الطريق وقد تكون إشارة باليد أو إيماء بالرأس (١)، كما قد تكون كلمات وجملًا. وبعبارة أخرى قد تكون علامات أو رموزاً غير لغوية تحمل معنى، كما قد تكون علامات أو رموزاً لغوية.

ورغم اهتمام علم الدلالة بدراسة الرموز وأنظمتها حتى ما كان منها خارج نطاق اللغة، فإنه يركز على اللغة من بين أنظمة الرموز باعتبارها ذات أهمية خاصة بالنسبة للإنسان.

وقد عرف بعضهم الرمز بأنه: "مثير بديل يستدعي لنفسه نفس الاستجابة التي قد يستدعيها شيء آخر عند حضوره" (٢).

ومن أجل هذا قيل إن الكلمات رموز لأنها تمثل شيئاً غير نفسها وعرفت اللغة بأنها «نظام من الرموز الصوتية العرفية».

ومثال الرمز غير اللغوي سماع الجرس في تجربة بافلوف، فالجرس قد استدعى شيئاً غير نفسه بدليل أن الكلب حين يسمع الجرس لا يتوجه إليه ولكن إلى مكان الطعام.

ومثال الرمز اللغوي تجربة سائق السيارة والعائق: شخص يقود سيارة، يجد أمامه لافتة مكتوباً عليها: الطريق مغلق. إذا سار السائق ولم يعبأ بالرمز فإنه سيضطر إلى الاستدارة والعودة حين يصل إلى العائق، ولكن إذا عمل بما جاء في الرمز فيستدير بمجرد رؤيته ويعود. إذن اللافتة استدعت شيئاً غير نفسها، وهي بديل استدعى لنفسه نفس الاستجابة التي قد تستدعيها رؤية العائق.

وحيث كان مسلماً أن النشاط الكلامي ذا الدلالة الكاملة لا يتكون من مفردات فحسب وإنما من أحداث كلامية أو امتدادات نطقية تكون جملاً تحدد معالمها بسكّات أو وقفات أو نحو ذلك، حيث كان ذلك مسلماً، فإن علم المعنى لا يقف فقط عند معاني الكلمات المفردة (٣)، لأن الكلمات ما هي إلا وحدات

(١) من أمثله الرمز كذلك: حمرة الوجه الدالة على الخجل، والتصفيق علامة الاستحسان، وعلامات الترقيم، ورسم فتاة مغمضة تمسك ميزاناً كرمز للعدالة، ووضع شوكة وسكينة بصورة متقاطعة في القطار للدلالة على وجود مطعم فيه ... وغير ذلك.

(٢) علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مصدر سابق، ص ٧.

(٣) بخلاف ما كان شائعاً من قبل، وقد ذكر ماريو باي (١٩٦٥م) أن علم الدلالة يختص بدراسة معاني الكلمات. انظر: أسس علم اللغة، ص ٤٤.

يبني منها المتكلمون كلمهم، ولا يمكن اعتبار كل منها حدثاً كلامياً مستقلاً قائماً بذاته.

ما يغطيه التحليل الدلالي

التحليل الدلالي يغطي فرعين من الجوانب الدلالية للألفاظ:

أ. أحدهما يهتم ببيان معاني المفردات:

وذلك حين تعمل الوحدات اللغوية كرموز للأشياء خارج الدائرة اللغوية، أو حين تكون العلاقات بعض الخصائص المعنية في الواقع. وقد أطلق عليها بعضهم اسم المعاني المعجمية.

ب. والآخر يهتم ببيان معاني الجمل والعبارات:

أو العلاقات بين الوحدات اللغوية مثل الكلمات والجمل، وذلك حين تقوم العناصر اللغوية بدور الرموز لعلاقات بين عناصر لغوية أخرى، فقد سماها بعضهم المعاني النحوية (١).

علم الدلالة وعلوم اللغة

لا يمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة. فكما تستعين علوم اللغة الأخرى بالدلالة للقيام بتحليلاتها يحتاج علم الدلالة - لأداء وظيفته - إلى الاستعانة بهذه العلوم. فلكي يحدد الشخص معنى الحدث الكلامي لا بد أن يقوم بملاحظات تشمل الجوانب الآتية:

أ - ملاحظة الجوانب الصوتي:

يجب الانتباه إلى الجانب الصوتي الذي قد يؤثر على المعنى، مثل وضع صوت مكان آخر، مثل التنغيم والنبر. واستمع إلى قوله تعالى في سورة يوسف بعد فقد صواع الملك: { قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ } [يوسف: ٧٤-٧٥]، فلا شك أن تنغيم جملة: «قالوا ما جزاؤه» بنغمة الاستفهام، وجملة: «من وجد في رحله فهو جزاؤه» بنغمة التقرير سيقرب معنى الآيات من الأذهان، ويكشف عن مضمونها.

(١) علم الدلالة، مصدر سابق، ص ٦.

ب - دراسة التركيب الصرفي للكلمة:

وكذلك لتحديد معنى الحدث الكلامي فيجب علينا دراسة التركيب الصرفي للكلمة وبيان المعنى الذي تؤديه صيغتها. فلا يكفي لبيان معنى «استغفر» بيان معناها المعجمي المرتبط بمادتها اللغوية «غ ف ر»، بل لا بد أن يضم إلى ذلك معنى الصيغة وهي هنا وزن «استفعل» أو الألف والسين والتاء التي تدل على الطلب، وفي باب «معاني صيغ الزوائد» أمثلة أخرى كثيرة.

ج - مراعاة الجانب النحوي:

كذلك ليقوم علم الدلالة بأداء وظيفته فعلياً مراعاة الجانب النحوي، أو الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة. ولو لم يؤد تغيير مكان الكلمات في الجملة (تغيير الوظيفة النحوية) إلى تغيير المعنى ما كان هناك فرق بين قولك: طارد الكلب القط، وطارد القط الكلب. فذلك قد ينفق كلمات الجمل المتشابهة، ولكن يكون الاختلاف في توزيع المعلومات القديمة (الموضوع) والجديدة (المحمول)، مثل:

- الثعلب السريع البني كاد يقتنص الأرنب.

- الثعلب البني الذي كاد يقتنص الأرنب كان سريعاً.

- الثعلب السريع الذي كاد يقتنص الأرنب كان بلياً.

د - بيان المعاني المفردة للكلمات:

وهو ما يعرف باسم المعنى المعجمي، ومن الممكن أن يوجد المعنى المعجمي دون المعنى النحوي (كما في الكلمات المفردة)، وكذلك أن يوجد المعنى النحوي دون المعجمي (كما في الجمل التي تركب من كلمات عديمة المعنى مثل: القرع شرب البنع وقع وغيرها...).

بل من الممكن ألا يوجد للجملة معنى مع كون مفرداتها ذوات معان، وذلك إذا كانت معاني الكلمات في الجملة غير مترابطة مثل: الأفكار عديمة اللون تمام غاضبة.

هـ - دراسة التغيرات:

أي التي لا يكشف معناها بمجرد تفسير كل كلمة من كلماتها، والتي لا يمكن ترجمتها حرفياً من لغة إلى لغة، وذلك مثل البيت الأبيض في الولايات المتحدة، ومثل الكاب الأبيض والكاب الأسود كصطلحين

سياسيين ومثل التعبيرات للمصحافة المعنية بالقضائى والأخبار المثيرة، و«خضراء الدمن» للمرأة الحسناء في منبت السوء وغيرها.

علم الدلالة وعلم الرموز

تذكر معاجم المصطلحات اللغوية أن علم الرموز هو الدراسة العلمية للرموز اللغوية وغير اللغوية، باعتبارها أدوات اتصال. ويعرف بأنه العلم الذي يدرس الرموز بصفة عامة، ويعد علم اللغة أحد فروع.

ويرى أن علم الرموز يضم الاهتمامات الثلاثة الرئيسة الآتية:

١- دراسة كيفية استخدام العلامات والرموز كوسائل اتصال في اللغة المعينة.

٢- دراسة العلاقة بين الرمز وما يدل عليه أو يشير إليه.

٣- دراسة الرموز في علاقاتها بعضها ببعض.

وعلى هذا يضم علم الرموز كثيراً من فروع علم اللغة وبخاصة الدلالة والنحو والأسلوب. كما أنه يعد من الناحية الدلالية وحدها أهم من علم الدلالة، لأن الأخير يهتم بالرموز اللغوية فقط، أما الأول فيهتم بالعلامات والرموز، لغوية كانت أو غير لغوية.

علم الدلالة والعلوم الأخرى

ارتباطه بالفلسفة:

ربما كان ارتباط علم الدلالة بالفلسفة والمنطق أكثر من ارتباطه بأي فرع آخر من فروع المعرفة حتى قال بعضهم: "إنك لا تستطيع أن تقول متى تبدأ الفلسفة وينتهي السيمانتيك وما إذ كان يجب اعتبار الفلسفة داخل السيمانتيك أو السيمانتيك داخل الفلسفة" (١). ومنذ نحو ربع قرن من الزمان كان اللغويون يتكلمون السيمانتيك للفلاسفة والأنثروبولوجيين ثم أخذ السيمانتيك يحتل مكانة تدريجية في علم اللغة إلى أن تم في السنوات الأخيرة وضع السيمانتيك في مكانة مركزية في الدراسات اللغوية، وما يزال الفلاسفة حتى الآن يدرسون العلاقة بين اللغة والواقع، ويتساءلون عن مدى تحقق الصدق أو الزيف بالنسبة للشخصيات الخيالية

(١) Semantics, F. H. George ، ص ١٠٧.

الواردة في القصص مثل ساندريلا وجلفر وطرزان وغيرها.
ارتباطه بعلم النفس:

ويلي علوم الفلسفة في الاهتمام بالدلالات علم النفس الذي عالج الجانب الدائقي للغة. اهتم علماء النفس بالإدراك، وحيث كان الإدراك ظاهرة فردية فقد طوروا جملة من الوسائل ليعرفوا بها كيف يختلف الناس في إدراكهم للكلمات، أو في تحديد ملاحظاتها الدلالية. كذلك يهتم علم النفس بكيفية اكتساب اللغة وتعلبها، ودراسة السبل التي بها يتم التواصل البشري وغير البشري عن طريق اللغة^(١).
ومن أجل اهتمام علم الدلالة بكل ما يحمل معلومات فهو يهتم بالناس وعاداتهم الاجتماعية وطرق الاتصال القائمة بينهم والآلات أو الوسائل المستخدمة في ذلك. ويتوجه جزء كبير من اهتمامه للعمليات العضوية المركبة في الفم وفي أعضاء النطق بالنسبة للمتكلم، ويتبع ما تحدثه من اهتزازات هوائية تلتقطها أذن السامع. وهو يسير وراءها أبعد من ذلك ليرى كيف تتحول إلى إشارات عن طريق الجهاز العصبي، وكيف يتلقى العقل هذه الإشارات من خلال الأعصاب الممتدة من الأذنين ويترجمها إلى الفكرة التي يعينها المتكلم^(٢)، وبهذا لا يستغني الدرس الدلالي عن كثير من الحقائق الفيزيائية والفسولوجية.
ويلخص «ليتش» القضية كلها في قوله: "السيمانتيك نقطة التقاء لأنواع من التفكير والمناهج مثل الفلسفة وعلم النفس وعلم اللغة، وإن اختلفت اهتمامات كل باختلاف نقطة البداية"^(٣).

أسباب تطور دلالة الألفاظ

إن ألفاظ اللغة تتعرض إلى التغيير في معانيها، فتكتسب الكلمات معاني جديدة، إما ذات صلة بالمعاني القديمة وإما غريبة عنها، ولذا كانت هناك الظواهر الثلاث الآتية:
١. تغيير الدلالة: باستخدام معنى لم يكن من قبل.

(١) Semantic Theory ، ص ١١ وما بعدها.

(٢) من قضايا اللغة والنحو، ص ٤، و F. H. George ص ٣٩.

(٣) Semantic Theory ، ص ٩، مقدمة. وقد بالغ المؤلف في حكمة حين قال بعد ذلك: "السيمانتيك كثيراً ما يبدو محيراً ومربكاً، وذلك لأن السبل إليه مختلفة وكثيرة، والعلاقات بينها لا تبدو واضحة حتى بالنسبة للمؤلفين في الحقل".

٢. تعميم الدلالة: بأن تكون المعاني الجديدة أعم من المعاني القديمة.
٣. تخصيص الدلالة: بأن تحدد الكلمة ببعض ما كانت تدل عليه قديماً.

(المبحث الثاني: دلالة كلمة الأمة من خلال السياق القرآني)

لقد تعدد ورود كلمة الأمة في القرآن الكريم وبمعان مختلفة، فقد وردت كلمة الأمة للدلالة على الآتي:

إطلاق الأمة على الجماعة من البشر

أ- تطلق على المسلمين:

حيث يقول تعالى: { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: ٩٢].
لقد ورد في تفسير هذه الآية: أن المراد بالأمة هنا الشريعة والملة، والمعنى: أن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكل، وامتثال أمره واجتناب نهيهِ (١). والمعنى أن دينكم واحد وربكم واحد فلم تختلفون، ويقول تعالى واصفاً أمة سيدنا محمد ﷺ: { وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف: ١٨١].

ب- تطلق للدلالة على الأمم الأخرى:

مصطلح الأمة جاء في القرآن للدلالة على أمم أخرى غير الأمة المسلمة، كما ورد في قوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر: ٢٤]، ويقول تعالى: { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا } [فاطر: ٤٢]، وقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ) النمل (٨٣) وقوله تعالى: { وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [القصص: ٧٥]، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } [ن: ١٧].

(١) أضواء البيان، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ٨٩٢/١.

[النحل: ٣٦]، أي: ما من أمة من الأمم الماضية إلا بعث فيهم رسولا منهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه (١)، أي أن هنالك أمة في من كان قبلنا وستأتي أمة في من هم بعدنا، وبهذا لا تكون الأمة قاصرة على الأمة المسلبة.

إطلاق الأمة على أمة من غير الأنس

أ - تطلق للدلالة على أمة الجن:

وفي تتبعنا للآيات التي وردت فيها كلمة الأمة والأمم نجد أن هذا المصطلح ليس قاصراً من حيث الاستخدام على المجتمعات البشرية وحدها، بل يتسع ليشمل بعض المخلوقات الأخرى غير الإنسان، كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (٢) [الأحقاف: ١٨]: من جماعة الجن وبني البشر الذين فضلوا الانحراف على الثبات على الصراط المستقيم (٣)، وكقوله تعالى: {وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (٤) [فصلت: ٢٥].

يقول أبو السعود (٣) في تفسير هذه الآية: أي قدرنا لهم قرناء (جمع قرين) إخواناً من الشياطين يستدرجونهم ويحسنون لهم أمور الدنيا واتباع الشهوات بدلاً وعوضاً عن أمور الآخرة وبهذا استحَقوا العذاب كما في أمة قد مضت من عاد وثمود وغيرهم من الأمم المهلكة جزاء كفرهم وعصيانهم.

ب - تطلق كلمة الأمة على مخلوقات أخرى:

ومصطلح الأمة حسب وروده في القرآن غير قاصر في استعماله على أمة من الإنس أو الجن وحدهم، إنما يشاركهم في ذلك مخلوقات الله الأخرى كما قال ﷺ: {وَمَلِكٌ دَابَّ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِمَ لِيَطِيرَ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ}

(١) تفسير أبي السعود، ٢٤/٧.

(٢) تفسير أبي السعود، مصدر سابق، ٨٣/٧ (انظر تفسير سورة السجدة).

(٣) أبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تركي الأصل، مفسر وأصولي، برع في مختلف فنون وكان له معرفة باللغات العربية والتركية والفارسية. تولى قضاء القسطنطينية «إسطنبول» وغيرها، كان ذا مهابة عظيمة، توفي سنة ٩٨٢هـ، من كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتحفة الطلاب، ورسالة في المسح على الخفين، له ترجمة في شذرات الذهب، ٣٩٨/٨-٤٠٠، والبدور الطالع، ٢٦١/١-٢٦٢، رقم ١٢، والأعلام، ٥٩/٧.

أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَثَرَكِ رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]. وورد في السنة ما يؤكد هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ الْكَلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا» (١). وبهذا المفهوم فإن النحل أمة والنحل أمة، وكل الأحياء التي تعيش حياتها في مجموعة متجانسة أو غير متجانسة تسمى أمة، بل قد تتعدى كلمة أمة لتطلق على أي جنس أو نوع من الأحياء، من الحشرات أو الحيوانات أو غيرها من المجموعات التي لا نراها كأمة الجن، وقد جاءت كلمة الأمة لتفيد الصنف والنوع من المخلوقات الأخرى كما في قوله تعالى: **وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ لَا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَثَرَكِ رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ ﴿٣٨﴾** [الأنعام: ٣٨]، أي أصناف أمثالك في المعرفة بالله وطلب الغذاء وتجنب المهالك وغير ذلك من وجوه الشبه بالإنسان وغيره.

والمعروف أن لكل نوع من أنواع الطيور والحيوانات والحشرات نمطاً للحياة والعمل، وتمثل هذا بصورة واضحة في مجتمعات النحل والتحل وأسراب الطيور المهاجرة (٢).

تفصيلات المجموعات البشرية

من خلال المعاني الإجمالية للآيات السابقة فقد علمنا أن كلمة أمة ترد بمعنى مجموعة من البشر أو مجموعة من الجن أو من الأحياء الأخرى. وهنا سنتطرق لتفصيلات ورود كلمة أمة في القرآن في دلالتها على المجموعة البشرية وقد جاءت كالآتي:

١ - بمعنى الطائفة: كقوله تعالى: **إِذْ قَالَتْ أُنثَىٰ إِنَّهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ ﴿١٦٤﴾** [الأعراف: ١٦٤]، يقول الزمخشري (٣): لأن كل سبط كانت

(١) سنن الإمام أحمد، ٤٥/٥ (بإضافة فاقتلوا كل أسود بهم)، وانظر: مجمع الزوائد، ٤٣/٤ برواية الصحابي الجليل عبد الله بن مغفل.

(٢) انظر: مجلة العربي الكويتية، العدد ٣٢٤، مارس ١٩٧٩ م.

(٣) الزمخشري: هو جار الله محمود بن عمر محمد أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، لقب بجار الله لإقامته بمكة، توفي سنة ٥٣٨هـ، كان معتزلاً رأساً في اللغة والبلاغة وعمدة في علوم البيان وأسرار التفسير، من مؤلفاته الكشف والقائ في غريب الحديث، وأساس البلاغة، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٥١/٢٠-١٥٦، وإنباء الرواة، ٢٦٥-٢٨٢، رقم ٧٥٣، وطبقات المفسرين للداوودي، ٣١٤-٣١٦.

أمة عظيمة، وكل واحدة كانت تقوم خلاف ما تؤمّه (١) الأخرى لا تكاد تأتلف (٢).

٢ - بمعنى الفريق: كما ورد في حكم التنزيل قوله تعالى: {وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا وَنَهْنَهُمُ الصَّلَاحَ وَنَهْنَهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٦٨]، أي مجموعات مختلفة وقبائل متفرقة لا يجمعها جامع (٣)، كل فريق يسير بخلاف ما عليه الفريق الآخر.

٣ - بمعنى القوم: ذلك في قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْئَلُونَ عَنْمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤١]. وقوله تعالى في شأن بني إسرائيل: {وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَلِيئَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٠].

٤ - بمعنى الجماعة كثيرة العدد: وذلك في قوله تعالى: {وَلَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]. وهذا في الجماعة التي تكون على دين واحد (٤). وقوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]. والمقصود في هاتين الآيتين هو أمة الإسلام أمة سيدنا محمد ﷺ وأمة سيدنا موسى عليه السلام وهي مجموعة ضخمه من الإنس كما تراها اليوم (٥).

٥ - الجماعات الصغيرة: كذلك يطلق مصطلح الأمة ليعبر عن الجماعات صغيرة العدد نسبياً وذلك في قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ

(١) تؤم فلان ما تؤمّه الأخرى: يقصد خلاف ما تقصد الأخرى.

(٢) الكشف، الزخصري، ٢١١/٢.

(٣) المصدر السابق، انظر: ٢١١/٢-٢١٣.

(٤) تفسير الطبري، ٣٣٤/٢-٣٣٦.

(٥) ولما كان ورود مصطلح كلمة الأمة يشمل الجماعات كثيرة العدد وصغيرة العدد والفرد صاحب القدرات والممالك الخاصة والتميزة مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام فإن هذه الآية: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَفْضَحْتُمْ كَلِمَاتٍ بِغَدِّقَةٍ أَكْثَرُ لَكُمْ تَنْهَضُونَ} [النحل: ٩٢]، نجد أن هذه الآية تعبر عن الجماعات متفاوتة العدد.

مَا خَطَبُكُمْ فَأَلَا تَلَسْتُمْ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ [القصص: ٢٣].

٦ - تطلق كلمة أمة للدلالة على الديانة والملة: يقول تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَعْتَ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ويقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ} (٢٣) [الزمر: ٢٣]، أي وجدنا آباءنا على شريعة وديانة أي كانت، وفي الآية الأولى: يوضح المولى ﷺ أنه جعل الاختلاف والتباين بين البشر شرعة ماضية، بل إن الاختلاف داخل الملة الواحدة موجود، وقد جاء في جامع البيان: أن المقصود من ورود كلمة أمة هنا هو الدين والملة (١). وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْكَافِرُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ [يونس: ١٩]، يقرر الله ﷻ وحدة الأمة ووحدة عقيدتها في بداية نشوئها ثم طرأ الاختلاف والتباين في العقائد والدين.

٧ - بمعنى الوقت والحين: تطلق كلمة أمة للتعبير عن الوقت والحين يقول تعالى: {وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَجْسُئُهُ أَلَا يَوْمُ رَبِّهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (٨) [هود: ٨]، أي بعد حين من الوقت (٢). يقول القرطبي (٣) في معنى هذه الآية: هو الأجل المحدود ومحجي أمة وانقراض أمة، وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِظُّكُمْ بِأَوْيَلَيْهِ فَارْسِلُونِ} (٤٥) [يوسف: ٤٥]، أي تذكر بعد وقت من الزمان (٤).

٨ - للدلالة على الفرد المتميز ذي القدرات الخاصة: امتد مصطلح الأمة ليشمل الفرد المتميز بقدرات وطاقات خاصة موظفة في طاعة الله، وقد ذكر الله جلَّ شأنه نموذجاً لذلك، فكان ذلك الفرد هو الخليل

(١) جامع البيان، الطبري، مصدر سابق، ٦٠/٢٥-٦١، وانظر: عمدة الحفاظ: ٢٥-٢٦.

(٢) نزعة الأعين التواظر، ١٤٣-١٤٤.

(٣) الإمام القرطبي: هو محمد بن أبي بكر الأنصاري الأندلسي أبو عبد الله، من تصانيفه: «جامع أحكام القرآن»، وهو مصنف في التفسير وأحكام الآيات، توفي في مصر سنة ٦٧١ هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٢٨، حلية الأولياء، ١٧/٧.

(٤) القرطبي، جامع أحكام القرآن، ١٤٧/٣.

إبراهيم عليه السلام، حيث قال عنه الحق ﷻ: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: ١٢٠]، يقول ابن جرير الطبري (١): وهو الإمام يقتدى به في الخير (٢) ويؤتم به وهو القانت المطيع لله (٣).

المبحث الثالث: مفهوم كلمة الأمة

بعد العرض السابق للعاني المختلفة لمصطلح الأمة حسب وروده في القرآن الكريم وتوضيح معانيها ودلالاتها نخلص إلى أنها ذات محتوى لأبعاد وعناصر أربعة هي:

١ - العنصر البشري

٢ - العنصر الفكري

٣ - العنصر الاجتماعي

٤ - العنصر الزمني

المفهوم العام لمصطلح الأمة

وهذا الاستيعاب الشامل لكل هذه الدلالات بأبعادها المختلفة أربك كثيراً من المستشرقين في تحديد كلمة أمة كمفردة ذات معنى محدد، وقد حاول الدكتور أحمد حسن الفرحات (٤) في بحثه المنشور بعنوان «الأمة في دلالاتها العربية والقرآنية» أن يجمع هذه العناصر المختلفة حيث يقول: تتشمل الأمة أولاً برجل واحد

(١) ابن جرير الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر، الإمام العلم المجتهد، شيخ المفسرين، كان عالماً بالقراءات وعالماً بالحديث وعلومه والتاريخ وأحداثه والعربية وأسرارها، وصار تفسيره مرجعاً للعلماء بعده، توفي ﷺ سنة ٣١٠ هـ من كتبه: التفسير المسمى «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، وتاريخ الأمم والملوك أو الرسل والملوك، وتهذيب الآثار. انظر: تاريخ بغداد، ١٦٢/٢-١٦٩، رقم ٥٨٩، وسير أعلام النبلاء، ٢٦٧/١٤-٢٨٢، وغاية النهاية، ١٠٦/٢-١٠٨، وطبقات الداوودي، ١١٠/٢-١١٨.

(٢) جامع البيان، ٥٦٣/١.

(٣) المصدر السابق، ١٩٠/١٤.

(٤) د. أحمد حسن الفرحات، كاتب إسلامي معاصر، يمتاز كتابته بالأصالة والمنهجية، يعمل محاضراً بجامعة الكويت.

حينما يكون على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان، وهو النبي غالباً أو من يسير على طريقته، فهو بهذا يكون الرجل المتفرد، الذي يكون إماماً وقدوة لغيره من الناس، أي صاحب فكر ومقدرة على التحول والتأثير في أمتة ومجتمعه. فإذا استجاب لهذا الرجل المتفرد فئة من الناس وسارت على طريقته ومنهجه سميت أمة لاجتماعها إليه، وإذا تخلت عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها فن ثم تسمى أمة باعتبار ما كان (١). وعلى هذا فكلمة أمة تطلق على المجموعة من الناس التي تلتزم بشريعة سماوية، فيصبح إطلاق كلمة «الأمة» على هذه الفئة بعد هلاكها كأنما أريد به تلك الفترة التي كانت فيها خالصة في عبادتها وصادقة في توجهها لله وحده ﷻ (٢).

ومن خلال استقراءنا للآيات الكريمة ودلالة الاشتقاق اللغوي يمكن تحديد كلمة «أمة» من حيث ورودها في القرآن الكريم بالإضافة إلى العناصر المذكورة سابقاً في معانٍ أربعة هي:

- ١ - بمعنى الجماعة: العنصر البشري
- ٢ - بمعنى الملة أو الدين: العنصر الاجتماعي
- ٣ - بمعنى الرجل الذي لا نظير له: العنصر الفكري
- ٤ - بمعنى الوقت (الحين): العنصر الزمني

وعندما ننظر إلى أمة الإسلام يختلف المعنى لدينا من حيث دلالاته ولكنه لا يخرج عن الإطار العام للكلمة كمصطلح. فالوسطية الموصوفة بها أمة الإسلام هو ما تدعوله من خير بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وشهادة أمة الإسلام على غيرها من الأمم شهادة حق، بأن الله ﷻ بلغهم رسالاته ووجه إليهم الرسل هداة منذرين حتى لا يكون للناس حجة بعد الرسل. وليس للأمة الإسلامية زمان أو وقت تنقضي بعده وذلك

(١) الأمة ودلالاتها العربية والقرآنية، أحمد حسن القرحات، عمان الأردن، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ، ص ٢٠.

(٢) ولعل هذا التوجه لإطلاق كلمة أمة على الفئة التي تلتزم بشريعة سماوية، لا يتفق فيه الباحث مع صاحب المقال د. القرحات، لأنه وبمقتضى الدراسة والبحث وجدت كثيراً من الأمم كان هلاكها في الأصل بعدم اتباع الشريعة، وبهذا لا يمكننا أن نعرف معنى كلمة الأمة على أنها تطلق على كل مجموعة مؤمنة وحسب، ولكنها تطلق على كل مجموعة سواء أكانت على دين وشريعة أو خلافة.

على عكس الأمم السابقة لها، حيث أوضحت النصوص القرآنية أن لكل الأمم السابقة قبل أمة الإسلام أجلاً معيناً تقضى بعده وينسخ دينها بعد إرسال رسول آخر، وأن الله ﷻ كان يبعث مع كل أمة جديدة رسولاً وأن كثيراً من الأمم كذبت برسالتها حيث يقول جل من قائل: ﴿أَفَلَا خَذَرْتُمُ الْمَصِيبَةَ﴾ ﴿الْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَفًا﴾ ﴿فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون: ٤١-٤٤].

ولهذا عندما نطلق كلمة أمة نعني بها المحتوى الذي يضم كل المجموعات البشرية داخل المجتمع (١) بأبعاده الفكرية والحضارية والزمنية ولا شك أن أي مجتمع أو أمة تقوم على هذه المكونات. ونخلص من هذا أن مصطلح كلمة «أمة» و«الأمم» الوارد في هذا البحث نعني به تلك المكونات التي تنهض بها المجتمعات لتأخذ صفة الأمة من حيث العنصر البشري والاجتماعي والفكري والزمني. فالأمة في المفهوم الإسلامي هي المجموعة ذات الرسالة والعقيدة الواحدة التي تتمثلها سلوكاً معاشاً وبلاغاً بخلاص الإنسانية وسعادتها، ومجال هذه الدعوة البسيطة كلها، ودعوتها الإسلام، ومظنتها وهدفها الإنسان في أي زمان ومكان، ووسائلها لذلك كل ما هو متاح وله الفعالية في إيصال فكرها وتبليغ دعوتها. ومن هنا يمكننا القول إن كلمة «أمة» أخذت مفهومها وهويتها كمفردة من مفردات الرسالة الإسلامية (٢) وشريعتهما السمحاء، وقد ولدت هذه المصطلحات الإسلامية بميلاد رسالة الإسلام مثلها مثل المصطلحات الأخرى؛ كالصلاة والزكاة والإيمان والإسلام والعبادة وغيرها (٣).

(١) صلاح الغزال، التصدر القرآني للمجتمع، ص ٧٣.

(٢) الأمة ودلالاتها العربية والقرآنية، أحمد حسن الفرحات، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٣) تناول هذا المعنى في كتاباتهم عدد من المفكرين الإسلاميين من المهتمين بالدراسات القرآنية أمثال المفكر الإسلامي القذافي مالك بن نبي في كتابه القيم «الظاهرة القرآنية»، ص ١٨٧، وكذلك سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، جمهورية مصر العربية، دار الكتب العربية، بيروت، ص ١٥٥.

المبحث الرابع: دلالة لفظ كتاب من خلال السياق القرآني

وردت كلمة «كتاب» في القرآن الكريم في مواضع كثيرة في آيات متعددة، وكان لها دلالة ومعاني مختلفة ومتباينة، نستشف ذلك ونستقرئه من خلال السياق الذي وردت فيه. ويتم ذلك من خلال بيئة الكلمة التي تعيش فيها وحقلها الذي يحتويها، وملاحظة ما قبلها وما بعدها من الكلمات، وما تستقر فيه مع وسطها من الآيات، كل هذه المعطيات كفيلة بتوجيه المفسر والدارس للقرآن الكريم نحو المعنى المراد.

وسنقف هنا على بعض تلك المعاني المختلفة لكلمة كتاب حسب اختلاف ورودها من خلال السياق في القرآن الكريم.

١ - كتاب بمعنى القرآن

وذلك كما ورد في قوله تعالى: {الرَّكَنُ أَهْكَبَ أَيْنَهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ أَلَدْنِ حَكِيمِ خَبِيرٍ} [هود: ١]، ومثل قوله ﷺ: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، وكفوله ﷺ: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِمَّنْهُمْ} إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠]، ومنها أيضا قول الله ﷻ: {قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِنَّ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: ٣٠]، والقرينة الدالة على ذلك هو قوله تعالى قبلها: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩]، فملاحظة السياق لهذه الكلمة «كتاب» في الآيات السابقة والمواضع التي وردت فيها وملاحظة ما قبلها وما بعدها تحدد بدقة معناها المراد، ألا وهو «القرآن» لا غيره.

٢ - كتاب بمعنى التوراة والإنجيل

وقد وردت كلمة كتاب في النص القرآني بمعنى التوراة والإنجيل مجتمعين أو منفردين فن ذلك ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}

﴿النساء: ١٧١﴾، ويراد بها هنا الإنجيل بقرينة قوله تعالى: {يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَسْلُؤُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}، وهي بلا شك قرينة قوية في تخصيص هذا المعنى وتحديد به قنائه، وكلما اقترنت كلمة كتاب بكلمة «أهل» كان معناها قطعاً اليهود والنصارى مجتمعين أو متفرقين حسب السياق، ومن الآيات التي تصرف فيها الدلالة قطعاً إلى التوراة قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابُ مُصَدِّقٍ لِسَانَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} ﴿الأحقاف: ١٢﴾، وذلك لأن المعروف أن كتاب موسى ﷺ هو التوراة.

٣ - كتاب بمعنى اللوح المحفوظ

وردت كلمة كتاب بمعنى الكتاب الإلهي الذي أثبت فيه علم الله تعالى الأزلي الذي يحوي لعالم الغيب والشهادة، وهذا معنى المقصود في عدد من آيات القرآن الكريم التي منها قوله تعالى: {وَمَنْ ذَابَقُوا الْأَرْضَ وَلَا ظِلَّ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِو إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَنُفِثْنَا فِي رِيحِهِمْ يُمْشِرُونَ} ﴿الأنعام: ٣٨﴾، إذ المراد هنا المعنى المذكور آنفاً، وهذا ما يدل عليه سياق الآية، على عكس ما رآه عدد من المفسرين قديماً وبعض الحداثيين في هذا العصر من أن لفظة الكتاب هنا تدل على القرآن، وليس في السياق ما يشير لهذا المعنى بل هنالك عدد من القرائن تؤكد ما ذكرناه؛ أهمها سياق الآية ودلالة ما جاء قبلها وبعدها مباشرة من كلمات توسطتها كلمة «كتاب» حيث مهد السياق لهذه الدلالة، أي - الكتاب الشامل لعالمي الغيب والشهادة المحيط بكل شيء - ففي ذكر دواب الأرض بصورة حصرية وما رافق ذلك من ذكر عالم الطير وأنها أمم وعوالم مثل عالم البشر، وهي بهذا التعدد والتباين المذكورة محفوظة في كتاب تم إحصاء كل شيء فيه، ومن بيئة الآية يتضح لنا أن ذلك الكتاب هو الكتاب الذي دون فيه ما كان وما سيكون من عالم الغيب والشهادة، إذن هو الكتاب الذي لم يفرط في شيء، وأحصيت فيه كل عوالم الكائنات. وبالطبع إذا أطلقنا هذا المعنى

وصرفناه للقرآن الكريم لا يستقيم، إذ إن القرآن الكريم لا يدل ما فيه على هذا المعنى (١) من إحصاء لكل الكائنات كما جاء هذا المعنى في قوله تعالى: {وَمَلِكِن دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ بِطَيْرٍ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعْلَمُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، ومنها قول الحق ﷻ أيضاً: {وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهُ وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة طه في حوار سيدنا موسى مع فرعون: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} [٥١] {قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [٥٢] {طه: ٥١-٥٢}، وهذا الكتاب هو الذي دون فيه كل العلم الإلهي الذي قال فيه ﷻ: {لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ آتَيْنَاهُ أَرْسَلْنَا رِيبَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عِندَنَا} [الجن: ٢٨]، في هذا الكتاب رصد دقيق لكل شيء، قال تعالى: {وَمَنْ غَابَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الزلزال: ٧٥]. فالدلالة هنا واضحة في أن هذا الكتاب هو السجل العام الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء.

المبحث الخامس: دلالة كلمة من من خلال (السبأ) (القرني)

١ - كلمة من بمعنى الإدراك والإصابة

وجاءت هذه الدلالة بهذا المعنى في العديد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩]، فالمس غير اللبس، إذ اللبس هو الجس باليد أو غيرها من مواضع الجسد، وهو مباشرة ظاهرية لشيء مجسم، أما المس فهو «الإصابة»، كما جاء في قوله تعالى: {إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ وَإِنْ تَضِيقُ كَيْدَهُمْ شَيْعًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْكُرُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]، وفي قوله تعالى: {إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلَهُ ذَلِكَ

(١) ومما ارتبط في أذهاننا من دلالة الكلمة هنا من واقع السياق فإن القرآن الكريم يحوي على كثير من العلوم، وحتى الآن لم يتم توير القرآن الكريم لينحنا ما حواه من العلوم، وإن القرآن الكريم أرشد إلى أصولها العامة ولم ينص على جزئياتها البسيطة صراحة.

الْأَيَّامُ تَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَجِدَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلمس في هذه السياقات وغيرها في آيات أخرى تحدثت عن «مس الضر» بمعنى الإصابة كما هو واضح، ومس القرآن في سياق هذه الآيات بمعنى إصابته وإدراكه معنوياً، أي فهمه وتدوقه، وقد ورد شيء من هذا الفهم أو ما يقاربه عند بعض القدماء فقد قال الفراء: "لا يمسّه: أي لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون ... من آمن به"، وقال الراغب الأصفهاني: "أي لا يبلغ حقائقه إلا من طهر نفسه وبقي من درن الفساد"، وقال الشوكاني: "قال الحسين بن الفضل في تفسيرها: لا يعرف تفسيره ولا تأويله إلا من طهره الله تعالى من الشرك والنفاق".

وكل هذه المعاني التي اهتدى إليها بعض سلفنا تؤيدها عدة قرائن أهمها: الصيغة الصرفية (المطهرون) بصيغة المفعول، أي الذين تطهروا ظاهراً وباطناً... تطهيراً روحياً وبنائياً. وبهذا يكون التطهير المقصود في هذا السياق ليس التطهر المادي بإرادتهم، (بصيغة تفعّل) مثل التطهر بالماء كما يتطهر الإنسان بإرادته وبنفسه. ومن هذا المعنى مس الشيطان، أي إصابة الشيطان بالأمراض النفسية والجسدية، كما قال الله تعالى: {وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَوْثَرُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَى الشَّيْطَانُ نَصْبِي وَعَذَابِي} [ص: ٤١].

وقد يكون معنى الآية مقصوداً به الملازمة بدلالة بعض قرائن السياق كما جاء في سياق الآيات التالية: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]، فإننا نجد في بيئة هذه الكلمة حديثاً عن منزلة القرآن الكريم في الملأ الأعلى، فهو مستقر في كتاب مكنون محفوظ ومطهر عالي المكان والمكانة في موضع مقدس مطهر بحيث لا يدركه إلا المطهرون، وعرفنا هذا بدلالة الصيغة الصرفية (صيغة المفعول)، فهم إذن لم يتطهروا بإرادتهم من تلقاء أنفسهم، فهؤلاء (المطهرون) هم البشر المؤمنون، أما أولئك (المطهرون) فلن يكونوا إلا ملائكة، وهو رأي ابن عباس رضي الله عنه كما روي عن الفراء، لأن الشياطين في عزلة عن تلقي القرآن وسماعه.

والفرق بين الصيغتين الصرفيتين السابقتين: «مطهرون» بتضعيف الهاء والطاء، ومطهرون بتضعيف الهاء وفتح ما قبلها - وهذا أسلوب معروف في اللسان العربي - حيث الأولى جاءت على أسلوب صيغة الفاعل للدلالة على معنى الفاعلية والثانية بصيغة المفعول للدلالة على معنى المفعولية، وسياق الآية يتطرق إلى

الثاني.

والذين يفسرون المس «باللمس» في القرآن الكريم يغفلون عن شيء أشار إليه القرآن الكريم في مستوى آخر وهو أن اللمس المادي لا يكون للوحي أي لكلمات الله المنزلة، وهذا لا يمكن تصوره إلا في حالة واحدة؛ وذلك أن يتم كتابة الكلمات في كتاب فيتم بهذا تجسيدها، فعند هذا نرى تعبيراً آخر كما في هذه الآية الكريمة: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّزْمِنٌ} [الأنعام: ٧]، وبهذا نجد أن اللمس متعلق بالقرطاس المادي الملموس المحسوس بخلاف القرآن الذي يمس أي يدرك بالعقل والروح، وهذا من دقة التعبير القرآني المعجز.

٢ - كلمة المس بمعنى الجماع

وهذا تعبير مجازي نلمسه في عدد من الآيات منها قوله تعالى على لسان مريم: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ} قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧]، وقد تكرر هذا المعنى في عدة آيات كما في قوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعُوا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦]، فإنه لا يراد باللمس هنا شيء غير الجماع؛ وقد أجمع عليه الفقهاء والمفسرون، كما لا يمكن أن نتصور أنه يراد به اللمس باليد، فلمس الرجل المرأة بيده - بعد عقد زواجه عليها - لا تترتب عليه أحكام مخصوصة في أي شيء ما دام لمسها بيده (واللمس غير الملامسة)، كما ذكر الحق ﷺ في نهاية الآية الكريمة السابقة: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ}، ولكن تترتب الأحكام المالية المتعلقة بحق المرأة على الرجل إذا تزوجها وعاشرها معاشرة جنسية ثم طلقها، وكذلك الأمر في الظهار إذ قال جل من قائل: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُعْطَوْنَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ٣]، فهو تعبير مجازي سواء في الآيات التي تنص قصة مريم أو في آيات الطلاق كما مرّت آنفاً، وهذا يقتضي أن المجاز موجود في القرآن الكريم لا يمكن إنكاره، وهو أسلوب من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

المبحث السادس: دلالة كلمتي (الروح) وفي من خلال (السياق) القرآني

١ - كلمة الروح من خلال السياق

أ - كلمة الروح بمعنى الوحي القرآني:

كلمة الروح بضم الراء التي جاءت في القرآن مشترك لفظي يتسع ليشمل عدداً من المعاني أيضاً بحسب السياق القرآني. وهي تعني الوحي القرآني والدلالة بهذا المعنى نجدها في عدد من الآيات، كقوله تعالى: {وَسَخَّلْنَاكَ مِنَ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء: ٨٥)، ومضمون الوحي الذي جاء به كل الأنبياء والرسل ﷺ هو التوحيد، وهذا الإنذار بالوحي هو المذكور بهذا المصطلح نفسه في سورة غافر: {ارْفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} (١٥) يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (غافر: ١٥-١٦)، والقرينة النصية هنا كسابقها هي قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}، أي يوم القيامة، إذ أعظم رسالة يقوم بإبلاغها الرسل والأنبياء ﷺ - بعد تعريف الناس بالتوحيد والإيمان بالله تعالى - هي أن يعتقد الناس بهذا اليوم يوم القيامة.

ب - الروح بمعنى الملك جبريل ﷺ:

ولكلمة الروح في القرآن الكريم معنى ثانٍ هو أمين الوحي الملك جبريل ﷺ وذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الرُّوحَ الْأَمِينُ} (٣٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٣٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (٣٥) [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، فالسياق هنا يتحدث عن القرآن الكريم وأنه تنزيل من رب العالمين، وأن الذي نزل به جبريل ﷺ من أجل الإنذار وأنه بلسان عربي مبين، وكلمة أمين في الآية الكريمة قرينة قوية في وصف أمين الوحي، كما وصف بالأمانة في آية أخرى: {مُطَاعٌ تَتَمُّ أَمِينٌ} (التكوير: ٢١)، وهناك معانٍ أخر لكلمة الروح في القرآن الكريم.

٢ - دلالة كلمة أُمِّيّ من خلال السياق في القرآن الكريم

من المتبادر أن كلمة أُمِّيّ في القرآن الكريم وردت بمعنيين لا ثالث لهما، وهذان المعنيان ليسا بشائعين عند كثير من المفسرين والمهتمين بالدراسات القرآنية من الباحثين في القديم والحديث، والمعنيان المذكوران أحدهما أشد تكراراً من الآخر، ولذا كان القرآن الكريم أحرص عليه لغاية دينية قصد إليها القرآن الكريم قصداً، هي تمييز النبي ﷺ عن الرسل والأنبياء وتميز أمته بهذه الأمية عن غيرها من أمم أهل الكتاب وأمم الأنبياء الأخرى.

أ - الدلالة الأولى: أُمِّيّ تعني من هو ليس بنصراني ولا يهودي:

أُمِّيّ في القرآن الكريم يقصد بها غير أهل الكتاب، أو من هو ليس من أمة سيدنا عيسى أو موسى ﷺ، أي تعني من لم ينزل عليه كتاب سماوي في السابق، وهذا المعنى مستنبط من عدة آيات منها قوله ﷺ: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢].

وبهذا يكون المراد بلفظ أُمِّيّ مطابقاً لكلمة عربي، أي قوم النبي محمد ﷺ، وهذا يعني أن هنالك أمتين مختلفتين أمر النبي محمد ﷺ بخطابهما ودعوتهما: الأولى: أمة «الذين أتوا الكتاب». والثانية: أمة «الأميين» الذين لا كتاب لهم، وليسوا من أهل الكتاب، وهم العرب الذين أرسل إليهم النبي ﷺ.

ب - الدلالة الثانية لكلمة أُمِّيّ:

هي الأمية التي يكون صاحبها له علم بأبجدية الكتابة والقراءة ومع ذلك ليس له وعي حقيقي أو فكرة واضحة أو فهم أو معرفة سليمة، أو تصور واضح مكتمل عما يقرؤه ويكتبه، وهذا المعنى هو المستفاد من قول الحق ﷻ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة: ٧٨]. الأُمِّيّ بهذا المعنى لا يدرك الأبعاد الأساسية لدينه ولا يوازن بينها فهو فاقد لأساسيات الوعي الديني،

وهذا ردُّ قرآني على ادعاء قوم من اليهود أنهم مهتدون متبعون لشرعهم اتباعاً تاماً نموذجياً^(١).

أما النبي الأُمِّي فهو الحبيب المصطفى ﷺ، لكونه لم يتلق تعليماً نظامياً بحيث يعلم عنه أنه تلقى علماً من فلان أو جلس إلى فلان، وهذا من باب إلحام المكذِّبين الذين يرون أنه تلقى هذا العلم من اطلاعه، وبين لنا أيضاً قوة الإعجاز فيما سيناط به من مسئوليات أساس التلقي فيها هو الوحي الإلهي من غير تصرف منه ﷺ^(٢).

وبعد فهذه نماذج تطبيقية عن القيمة المنهجية في استعمال أداة السياق التي تكشف لنا وضع الكلمة المعنية داخل بيئتها، وهذا ما كنت أشير إلى ضرورة استعماله في فهم القرآن من الاستعانة به في التفسير، إذ تعتبر الكلمة رهينة سياقها وبنت بيئتها. ومن الأهمية بمكان أن نستثمر علم دراسة النص الحديث في فهم النصوص بعامة ولا سيَّما في فهم النص القرآني ونصوص السنة النبوية المطهرة.

وهذا التغير والتنوع الدلالي الذي نراه في الكلمة الواحدة وفي تراوحها في مساحة دلالية واسعة بحسب ورود السياق وتوجيهه لدلالة الكلمة ومعناها القريب والبعيد، لا شك أن كل هذا مرده إلى ثراء اللغة العربية وغناها اللفظي وتعدد استعمال الكلمة الواحدة منها في وجوه متعددة بحسب السياق، ولهذا يعتبر اجتراء النصوص وإقصاء الكلمات وحبسها من سياقها لا يخلو لنا في فهمها الفهم الحقيقي، بل يكون كثيراً مظنة للخطأ ومجانبة الصواب، ولو لم يكن البحث عبارة عن دراسة مختصرة جداً، لكان علينا الوقوف على نماذج متعددة للتطبيق لنتعرف من خلالها على قيمة السياق في توجيه المعاني كما نراه في نماذج أخرى مثل الكلمات التالية: كلمة الرحمة، وكلمة الظلم، والخير، والشر، والذكر، والأرض، وغيرها من الكلمات التي يمكن أن ندرجها ضمن الظاهرة الدلالية التي تسمى المشترك اللفظي، أو تعدد الكلمة أو الأشباه والنظائر في الكلمات المتماثلة وقرينة المعنى والدلالة التي ترد بكثرة في القرآن الكريم، والتي حين نكشف عن دلالتها يتضح معناها من خلال السياق القرآني. وهذا يدل أن القرآن وحدة واحدة متماسكة من لدن واحد حكيم خير، وأن التأمل في

(١) انظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣٩/١ (بتصرف).

(٢) في محاضرة ذكر البروفسور جعفر ميرغني (مدير معهد حضارة السودان) أن الأمية في القرآن الكريم لا تعني أمية الجهل بالقراءة والكتابة وذكر كلاماً قريباً مما ذكرنا هنا، وساق من الدلائل ما يفيد فهم النبي ﷺ بمبادئ علم الحروف ... والله أعلم.

القرآن الكريم يظهر له أنه كله كالكلمة الواحدة.

الخاتمة

لقد تجلّى لنا من خلال هذا البحث ما نستطيع به القول إن الكلمة في القرآن الكريم بنت بيئتها التي لا تفصل عنها. وبهذا يتضح لنا خطورة التفسير والقول في كتاب الله تعالى بغير علم، كما ظهر لنا أيضاً من خلال هذه النماذج البسيطة التي سقناها لبعض الكلمات، خطورة الكلمة والدور الذي تقوم به من دلالة مصطلحية هامة تتنوع بتنوع السياق، ووجودها داخل الجمل المختلفة.

إن المصطلحات الإسلامية هي ذات الكلمات العربية التي كان يقول بها العربي الجاهلي، إلا أنها أخذت حقها ومكانتها ككلمات إسلامية ذات دلالة خاصة، فلا يمكن أن ندعي بأننا أمة إسلامية حتى نستوفي شروط هذه التسمية ومسؤولياتها وتبعاتها، ولا يصلح أمر آخرنا إلا بما صلح به أولنا، من واجبات قيامنا بأمانة الخلافة في الأرض، والبلاغ عن الله ﷻ في إيصال رسالته للبشرية كافة وأن نجسد في مجتمعاتنا مفهوم الأمة الذي يجب أن نكون عليه.

كما يجب علينا أن نفرض مصطلحننا ونفخر بغنى الإسلام الفكري، واتساع لغتنا بمفرداتها واشتقاقها، وأن تكون مناعتنا ضد المصطلحات الوافدة، بإخلاصنا لديننا واعتزازنا بإسلامنا، وأنه الرسالة الخاتمة وأن نبيننا أرسل للناس كافة.

وبهذا البحث المختصر يظهر لنا بجلاء ضرورة النظرة المتكاملة للنص القرآني؛ من خلال المساحة التي تشغلها الجملة القرآنية التي تعبر تعبيراً دقيقاً عن المعنى المراد، ومهما تكررت الجملة أو تشابهت الكلمات وتكررت المفردة فهي بلا شك تحمل معنى ودلالة مغايرة تماماً عن المعنى المشابه الآخر.

التوصيات

١ - الاهتمام بالمصطلح الإسلامي واستخدامه في مجال الإعلام والخطاب العام، والبعد عن المصطلحات الغريبة التي تمثل نوعاً من الغربة والتغريب للمسلم، والتي لا تكون في الغالب ذات دلالة واضحة ووضوح المصطلح الإسلامي ودلالته.

- ٢ - الحرص على النظرة المتكاملة للمفردة القرآنية من خلال السياق ومن ثم النظر في دلالتها من خلال وسطها بين الكلمات الأخرى.
- ٣ - نشر المفهوم العام لكلمة الأمة وإشاعته بين أفراد الأمة، وجعله وسيلة من وسائل الوحدة الغائبة بين دول العالم الإسلامي.
- ٤ - عدم القول في القرآن الكريم بغير علم أو فهم في اللغة فهو كتاب الشريعة الإسلامية ومنهجها في الحياة نزل بلسان عربي مبين، ومنزله ربّ العباد العالم بأسرار كل شيء، ولهذا التكرار لا يوجد في القرآن الكريم، ولكن يوجد تنوع في الأسلوب واختلاف في الدلالة مهما كان هذا التشابه. ومن هنا يتضح لنا خطورة التفسير.
- ٥ - لا يحق لمن يفسر القرآن الكريم أن يقول بهواه دون هادٍ من لغة أو مسكة من علم التصريف البلاغي الذي يتضح لنا من خلاله عظمة التعبير القرآني في استخدامه للمفردة الواحدة بصور متنوعة.
- ٦ - الاستفادة من أسلوب القرآن الكريم في الخطاب الدعوي والرسالي من خلال توظيفه للكلمة الواحدة بصور ودلالات مختلفة.
- ٧ - يجب على الباحثين والمتخصصين في الدراسات الإسلامية النظر في كتب التراث التفسيري نظرة جديدة مستصحبين من خلالها الفهم الدلالي للمفردة القرآنية من خلال السياق في القرآن الكريم.
- ٨ - على المؤسسات الإسلامية الأكاديمية أن تبدأ أسس الوحدة، وتؤطر لمنهج التلاحق والتواصل الأكاديمي بين هذه المؤسسات بما يقود المجتمعات المسلمة نحو قاعدة مشتركة، فالعلماء قادة الأمة نحو ما يحقق وجودها، ويوحد كيانها.